مسز لوتي

حادثة محزنة جرت في ضواحي الاسكندرية

بقلم أديب مصطافٍ في « كمبوسيزاره »

عرف الدكتور لوتي، طبيب الأسنان الأميركيُّ الطائر الصيت في الاسكندرية، الفتاة آسين بزبك في بيروت منذ ثماني عشرة سنة أو أكثر مدبّرةً لمنزل طبيبٍ أميركيّ يحترفُ طبَّ الأسنان مثلهُ، تعاونهُ آناً في مستوصفهِ، وتعاون زوجتهُ آناً في تدبير منزلها. واتفق أنَّ ذلك الطبيب شاخ واغتنى من صنعتهِ، فترك للدكتور لوتي مستوصفهُ، وانتقل مع عائلتهِ الى الولايات المتحدة، وانتقلت الفتاة آسين الى منزل والدتها، وبعد أيامٍ أدرك لوتي قدر حاجتهِ اليها، بالنظر الى حداثة عهدهِ في بيروت وجهلهِ بلغة البيروتيين، فطلبها، فأجابت والدتها :

— أنت أعزب، وهذه بنتٌ، وليس من عادات البنات في الشرقِ أن يعاشرنَ عزّاباً

قال : إني إذاً أخطبها، وهذه يدي !

فمدّت الفتاةُ اليهِ يدها، وصافحتهُ، وأصبح لوتي وآسين من تلك الساعة خطيبين، كلٌّ منهما موتنسٌ بالآخر وراضٍ عنهُ كلَّ الرضى

ثمَّ رأى لوتي، بعد عقد الخطبة، أنَّ بيروتَ أضيقُ من أن تسع مطامعهُ، أو تُبلغهُ الشهرة التي تصبو اليها نفسهُ، فقرَّر السفر الى الاسكندرية والاقامة فيها. وكاشف خطيبتهُ ووالدتها بعزمهِ، واقترن قبل سفرهِ من بيروت بالآنسة آسين حتى لا يفصلها عنهُ عائق. ثمَّ ركب واياها البحر الى الاسكندرية، وأصبحت آسين من تلك الساعة مسز لوتي

ولقد حققتِ الأيامُ للطيب آمالهُ في الاسكندرية فطارت شهرتهُ، وكثر الاقبالُ عليهِ من جميع احياء المدينة، حتى ضاق مستوصفهُ بالوافدين اليهِ . وكانت آسين تعاونهُ في أعمالهِ، كما كانت تعاونُ قبلهُ الطيب الشيخ في بيروت ؛ وكانت المحبةُ تزدادُ بينهما على مرّ السنين حتى أصبحا مضرب المثـل في ذلك بين جميع المعارف والاصدقاء

وولدت آسين خلالَ ذلك ولداً وثلاث بناتٍ، فازدادت بولادتهم روابط المحبة بين الزوجين، وأصبح لوتي لا يترك مستوصفهُ إلاّ الى زوجهِ يباسطها، و إلى أولاده يلاعبهم ويداعبهم . ومضى أربعـة عشر عاماً وهذه حالها من الغبطة والهناء، لم يتكدّر صفوهما، ولا تسرّب الى قلبيهما همٌّ

وبينما هما يمرحان في بحبوحة الرغد إذا بوالدة لوتي قدمت من الولايات المتحدة لتزور ولدها فلمـا اجتمعت بهِ وبزوجهِ وأولادهما، نفرت من الزوجة وانعطفت على الاولاد، وانطلق لسانها في تعيير أمهم وتحقيرها في أعينهم، هازئة بها وبجنسيتها قائلة : « أنتم أميركيون، يشرّفكم انتسابكم الى أبيكم، ولا يحطّ من قدركم إلاّ أن يعرف الاميركيون أن أمكم آسين ! » وقد تمادت في تنفيرهم منها، بل حرّضتهم على مقاطعتها والترفع عن ملازمتها ومصاحبتهـا في الزيارات وأمام أعين الناس

* * *

كانت آسين ترى وتسمع ذلك كلهُ فتكتم الـكمد وتظهر الصبرَ والجلد ؛ ولم تكاشف زوجها بشيء مما تعانيه، ولا خاطبت حماتها بكلمة عتبٍ أو ملام، الى أن اعتراها ذهولٌ شديد ذهب بلبّها وأفقدها صوابها . فحار زوجها في علتها وتقلبايديهِ الى المستشفى وأقام ساهراً عليها . وكأنما شعورها بعطفـهِ وحنانهِ كشف عنها ذلك الذهول، فلم يمضِ عليهـا أسبوعان حتى عاد اليها صوابها . وكأنّ ما أصابها خلق في

نفسها قوّةً لم تكن فيها من قبل فباحت لزوجها من جهةٍ ، وللقنصلية الاميركية من جهةٍ أخرى ، بما تفعله حمأتها في منزلها مما كان سبب علتها

على أثر ذلك ردّ الدكتور لوتي والدتهُ الى الولايات المتحدة ، وردّ غيابها اليهِ والى زوجهِ وأولادهما تلك العيشة الهنيئة التي كانوا فيها من قبل ، غير أنها لم تطل أكثر من أربعة أعوام اذ عادت أم لوتي ، وقد عقدت عزيمتهـا على السفر بولدها لوتي ، وأبنائهِ الاربعة دون أمهم الى الولايات المتحدة . وكان الولد قد بلغ السادسة عشرة من عمرهِ ، وبلغت البنت الكبرى الثامنة عشرة ، والصغرى الرابعة عشرة . فاستأنفت سيرتهـا الاولى مع الام والاولاد ، وزادت عليها انها اغتنمت فرصة بلوغ البنات لتشويقهنّ الى التزوُّج من بعض الاغنياء الاميركيين ، وتمكنت من استمالتهنّ اليها

ولم ترَ آسين من زوجها في هذه المرّة عطفاً في شيء ، ولم تكشف له عن سريرتها لاعتقادها أنهُ لا تخفى عليهِ خافية من أمر أمهِ وأعمالها وأقوالها ، بل لزمت الصمت ، وتولتها الكآبة والحزن ، ودبَّ في فؤادها اليأس والجزع ، وباتت منغصة العيش تقضي الليالي سهداً وبكاء ، وتصبح حيرى يتنازعها عاملان بين أن تنتصف لنفسها من حماتها وتظهر سلطتها في منزلها وعلى اولادها ، وهو العامل الأول ، وان تضحي نفسها فدًى لفلذات كبدها ولوالدهم الذي أحبتهُ وأخلصت له الودّ ، وهو العامل الثاني . ومضت عليها أيام في هذه الحيرة حتى أخذ الجزعُ منهـا كلّ مأخذ ونحل جسمها ووهنت قواها الى حدّ أنها عافت الطعام والشراب ، وعجزت ركبتاها عن حملها ، فارتمت في مخدعها خائرة العزم ، وقد غلب عليها العامل الثاني . ولو علمت في تلك الساعة بأنّ زوجها نسي حبها واشتغل قلبهُ عنها بحبّ أخرى من النساء لباحت بما تكتمهُ ، بل لربما كانت اختارت العامل الأول . الاّ أنهـا كانت تحبهُ حبًّا مفرطاً ، ولم يكن ليخطر في مخيلتها أنهُ يخونها في عهد أو ميثاق

* * *

وفي غسق الليل الذي عقدت عزيمتها فيهِ على الانتحار ، أخرجت من خزانة أثوابها قميصاً طرّزتهُ بيدها على أن تقدّمهُ في الصباح هديةً الى زوجها في عيد ميلادهِ وفتحت نافذة غرفتهـا في كمبوسيزاره وهي بقميص النوم ، وكان القمر في أتمّ لمعانهِ يتلألأ ضوءهُ على صفحات البحر العجاج ، والامواج تتلاطم وتتكسرُ على الصخور فيسمع لها هديرٌ يطرق الاذن ، وترسل في النفس بعض الرعدة والخوف . غير أن آسين لم ترتعد فرائصها ولم تثنِ عن عزمها ، بل تراجعت وقد وطنت النفس على اتخاذ رحب البحر قبراً ، وأمواجهُ كفنا . ثم اغلقت النافذة واستدعت اليها بنتها الـكبرى ، وسلمت اليها حسابات المنزل وما معها من النقود وقالت لها :

— « اني مريضة يا ابنتي ، وقد بلغتِ انتِ من العمر حدًّا يلزمكِ فيهِ ان تعلمي تدبير المنزل ، فاستلمي الحسابات »

ثمَّ قبلتها ، واستدعت ولدها وأبنتيهـا الأخريين وقبلتهم قبلة الوداع الذي لا لقاء بعدهُ . . .

* * *

وعند الساعة الحادية عشرة من ذلك الليل عادت الى النافذة ، وكان أهل المنزل نياماً ؛ فألقت نظرةً ثانيةً على البحر وأمواجـهِ ؛ ثمَّ أسرعت الى الباب ، ففتحتهُ وانسلّت منهُ الى الشاطئ حتى انتهت الى مكانٍ يشرِف على غورٍ عميق ، فألقت بنفسها اليهِ

وكان زوجها قد سمع ، وهو في مخدعـهِ ، رنة الجرس في باب المنزل عند خروجها منهُ ، فظنَّ انَّ شقيقـهُ قد عاد الى المنزل فى تلك الساعة . ولكن مضت بضع دقائق ولم يسمع حركةً تدلُّ على دخول قادم ، فنهض وتفقد الغرف ، فلم يرَ زوجتهُ فى غرفتها ولا فى غيرها فانطلق الى الشاطئ يبحثُ عنها ، فلم يرَ لها اثراً

* * *

عند فجر اليوم التالي نهض شقيقهُ « هرّي » مبكراً ، وهو يجهلُ ما حدث ، واطلَّ بمنظارهِ على البحر ، فكان اوَّلُ ما وقعت عينهُ عليهِ جثةً منتفخة ضاق عنها قميصها فتمزَّق . فنادى شقيقهُ الطبيب ، فأقبل يتبعهُ اولادهُ الاربعة ، فما ابصروا الجثة تتقاذفها الامواج ، حتى صاح الرجل من اعماقِ قلبهِ :

هذه زوجتي . . !

وصاح الاولاد :

هذه أمنا . . !

وخنقتهم العبرات ثمَّ تراكضوا واخرجوا الجثـة وقد اقتضى استخراجها من البحر استخدام اربعة من الرجال ؛ فستروها ببعض الملابس وحملوها الى المستشفى ومنهُ نقلت الى المرقد الاخير . . .

* * *

هذه حكاية مسز آسين لوتى التي روت الصحف خبر انتحارها فى هذا الصيف ، وفى قصتها عبرة وعظة

﴿ الثعلب والعوسجة ﴾

قيل انَّ ثعلباً أراد مرَّةً أن يصعد حائطاً ، فتعلّق بعوسجةٍ ، فعقرت يده ، فأقبل يلومها ؛ فقالت له :

يا هذا لقد أخطأتَ حتى تعلقت بي ، وأنا من عادتي أن أتعلق بكل شيء

ابن حمدون